African Journal of Advanced Studies in Humanities and Social Sciences (AJASHSS)
المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية
Online-ISSN: 2957-5907
Volume 2, Issue 3, July-September 2023, Page No: 562-571
Website: https://aaasjournals.com/index.php/ajashss/index
Arab Impact factor 2022: 1.04 SJIFactor 2023: 5.58 ISI 2022-2023: 0.510

الجدل الفكري بين الفرق الإسلاميّة: نماذج ونتائج

د. سلوى بن أحمد *
قسم أصول الدّين، جامعة الزّيتونة، تونس

Intellectual Controversy among Islamic Groups: Models and Results

Dr. Saloua Ben Ahmed *
Department of Fundamentals of Religion, Zaytouna University, Tunisia

*Corresponding author salouabenahmed22@gmail.com *المؤلف المراسل
تاريخ الاستلام: 2023-06-17 **تاريخ القبول:** 2023-07-29 **تاريخ النشر:** 2023-08-10

الملخص

تبيّن هذه الدّراسة بدايات وعوامل نشأة الجدل الفكري في الإسلام، مع تقديم بعض النّماذج المختارة لذلك، وتطرح في المقابل النّتائج المتشعّبة لهذا الجدل والتّي كان لها الدّور الرّئيس في الانقسام الكبير الحاصل داخل الأمّة الإسلاميّة، الذّي انعكس بانعكاس المواقف الشّخصيّة على الفكرة والرّأي بالتّالي على هذا العلم (علم الجدل) بصفة مباشرة، الأمر الدّاعي إلى وجوب ضبطه أخلاقيّا وعلميّا، تفاديًا للسّقوط في المعترك الإيديولوجي الذّي انعكس حديثًا على المقاربات الاجتماعيّة البعيدة على النَّظم الموضوعي، ما أدّى لإفراز خلايا إرهابيّة فكريّا وممارستيًّا .

الكلمات المفتاحية: الجدل، الفرق الإسلاميّة، الإيديولوجيا، الأخلاق.

Abstract

This study shows the beginnings and factors of the emergence of intellectual controversy in Islam with the provision of some selected models for that. In return it presents the manifold results of this controversy, which had the main role in the great division within the Islamic nation. This division was reflected by the reflection of personal attitudes on the idea and opinion and thus on this science (the science of dialectics) directly, which calls for the need to control it morally and scientifically in order to avoid falling into the ideological battle. The latter was recently reflected on social approaches far from objective systems, which led to secrete terrorist cells intellectually and practically.

Keywords: Controversy, The Islamic Divisions, Ideology, Ethics.

مقدمة:

نشأت قراءات عديدة ومختلفة لمبهمات الدّين الإسلامي في القرون المتقدّمة، وهذه القراءات أنتجت منظومة فكريّة متمايزة ومتنوّعة، أدّت هذه المنظومة إلى نتائج هامّة اتّسمت بالإيجابيّة من ناحية والسّلبيّة من ناحية أخرى، وهذه النّتائج أساسها الجدل الفكري على اعتبار وأنّ الجدل ظاهرة إنسانيّة تواجدت مع تواجد الإنسان على وجه البسيطة.

لقد أنتج هذا الجدل الفكري بين الفرق الإسلاميّة أراء كلاميّة مختلفة أهمّها ما هو في باب الغيبيّات من المسائل كالجزاء والثّواب، وخلق القرآن، والألوهيّة والنّبوّة، وغيرها كثير، ما أدّى لشروخ عدّة في ظهر الأمّة الإسلاميّة والانقسام الكبير في الفرق والمذاهب من ناحية، ومن ناحية أخرى تبقى هذه المجادلات والاختلافات رحمةً للبشريّة من حيث الوصول لنظريّات حقّة تبيّن الغامض وتفسّر الملتبس.

غير أنّ الإشكال الذّي يطرح نفسه في هذا الصّدد:

ماهي الأسس المنطقيّة للتّمييز بين الجدل الممدوح والمذموم؟ وإلى أيّ مدى كان النّزوع إلى العقل متجلّياً في الأساليب الحجاجيّة عند الطّوائف الكلاميّة من حيث القضايا والمواقف؟ وما هي انعكاسات هذا الجدل في الممارسات والمقاربات الحديثة على المجتمعات الإسلاميّة؟ وهل اتّسمت بالموضوعيّة أم نالت منها إيديولوجيات الانتماء؟

أولا: الجدل الفكري بين المعنى والجدوى

1- الجدل في اللّغة والاصطلاح:

أ/ المعنى اللّغوي:

الجدل أو الجدال في اللّغة يعود إلى مادة جدل، قال ابن فارس: الجيم، والدال، واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام. [1]

وقال الجرجاني: الجدل: دفع المرءِ خصمَه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو بقصد تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة، وذهب إلى أنّه عبارة عن مِراءٍ يتعلق بإظهار المذاهب، وتقريرها. [2]

وقال ابن منظور: الجدل هو اللّدد في الخصومة، والقدرة عليها، وقد جادلته مجادلة، وجدالاً، ورجل جَدِل، ومِجْدَل: شديد الجدال، ويقال: جادلت الرجل فَجَدَلْته جَدْلاً: أي غلبته، ورجل جَدِل: إذا كان أقوى في الخصام، وجادله: أي خاصم مجادلة وجدالاً، والاسم: الجَدَل، وهو شدة الخصومة. [3]

وقال الكفوي: الجدل هو دَفْعِ المرءِ خَصْمَهُ عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، ولا يكون إلا بمنازعة غيره.[4]

وبناء على ما سبق، يدور المعنى اللّغوي للجدل حول الخصومة واللّدد والمغالب والمنازعة ومراجعة الكلام، وما جرى مجراهم من الشّدة والعناد والتمسك بالرأي والتعصب له ومحاولة إسقاط للخصم، بالتّالي يمكن أن نستخلص أنّ الجدل هو المقاومة على سبيل المنازعة العقليّة والمغالبة لإلزام الخصم.

ب/ المعنى الاصطلاحي:

تعدّدت التّعريفات الاصطلاحيّة لمفهوم الجدل والمجادلة، غير أنّها التقت في سياق واحد يقول الجرجاني مثلا الجدل "دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجّة أو شبهة، وهو لا يكون إلاّ بمنازعة غيره، والقصد منه تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة".[5]

وفي موضع آخر قال "هو قياس المؤلّف من المشهورات والمسلّمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدّمات البرهان"، ومن جهة أخرى يرى الجرجاني أنّه "مراء يتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها".[6]

ويذهب ابن سيناء إلى أنّ الجدل "فنّ يساعد على تحصيل صناعة يمكننا بها أن نأتي بالحجر على كلّ ما يوضع مطلوبا من مقدّمات ذائعة، وأن نكون إذا أجبناه يؤخذ منّا ما يناقض وضعنا".[7]

---

[1] ابن فارس، أحمد بن زكريّاء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، 1979م، 1/ 433.

[2] الجرجاني، الشّريف، التعريفات، تحقيق مصطفى أبو يعقوب، مؤسّسة الرّسالة ناشرون، ط1، 2006، ص74 وما بعدها.

[3] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط3، 1414 هـ، 11/ 105.

[4] الكفوي، أبو البقاء أيّوب بن موسى، الكليّات (معجم مصطلحات والفروق اللّغويّة)، تحقيق عدنان درويش، محمّد المصري، مؤسّسة الرّسالة، ط2 1998، ص 353.

[5] الجرجاني، الشّريف، التّعريفات، ص66.

[6] الجرجاني، التّعريفات، ص66.

[7] ابن سيناء، أبو علي الحسين بن الحسن، الشّفاء، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر، ط1، 1988، ص21.

وهذا التّعريف السّينوي يدفع بنا إلى التّعريف الأرسطي لنتبيّن الفرق بينهما يقول إذ يذهب أرسطو للقول إنّ الجدل "طريق تهيّأ لنا به أن نعمل من مقدّمات ذائعة قياسا في كلّ مسألة، وأن نكون إذا أوجدنا جوابًا لم نأت فيه بشيء مضادّ".[8]

وبناء عليه يتّفق أرسطو وابن سيناء في مسألة الاستدلال بالمشهورات وعدم التّناقض عند الجواب، ولكنّهما يختلفان في رأيتهما للجدل بحدّ ذاته حيث أخذه ابن سيناء صناعة وأخذه أرسطو طريقا، وهذا الفرق له أثر في اعتبار الجدل ملحقا بالمنطق العام لدى أرسطو، وهو نوع من القياس ولكنّه ليس يقينا، على اعتبار وأنّ المنطق واحد وأبجديّاته واحدة أعلاه البرهان والجدل الأوّل منه مرتبة.

وأمّا اعتبار الجدل نوعا من المنطق وصناعة خاصّة، فالمقصود بها الصّناعة المنطقيّة الجدليّة، وهو ما كان من أمر أشهر الفلاسفة أفلاطون الذّي تأثّر بالجدل و رأى أنّه الطريق الوحيد للبحث في الفلسفة، فاصطنع الجدل وتحدّى السّفسطائيين فنقل اللّفظ من معنى المناقشة المموّهة إلى معنى المناقشة المخلصة التّي تولد العلم، وهي مناقشة بين اثنين أو أكثر, أو مناقشة النّفس لنفسها، وقد ذهب إلى أبعد من هذا فأطلق اللّفظ على العلم الأعلى الذّي ليس بعده مناقشة، حتّى أصبح الجدل عنده المنهج الذّي يرتفع العقل به من المحسوس إلى المعقول لا يستخدم شيئًا حسيًّا، بل ينتقل من معانٍ إلى معانٍ بواسطة معانٍ أخرى، ثمّ ذهب للقول أنّه العلم الكلّي بالمبادئ الأولى والأمور الدائمة يصل إليه العقل بعد العلوم الجزئية، فينزل منه إلى هذه العلوم يربطها بمبادئها، وإلى المحسوسات يفسرها، فالجدل منهج وعلم يجتاز جميع مراتب الوجود من أسفل إلى أعلى والعكس[9]، فإذا هو يقابل ما يصطلح عليه بنظريّة المعرفة بمعنى واسع يشمل المنطق والميتافيزيقا معا.

وتأسيسًا على ما سبق، فإنّ الجدل وسط بين الأقاويل البرهانيّة والأقاويل الخطابيّة، وتهدف هذه الأقاويل الجدليّة عامّة إلى أمرين على نحو نسقين:

الأوّل: أن يلتمس السّائل بالاستناد إلى الأمور المشهورة والمسلّمة إلزام الخصم وإفحامه، وهو ما درج عند المتأخّرين من الفلاسفة والباحثين.

والثّاني: أن يلتمس إيقاع الظّنّ القويّ في رأي يجب تصحيحه حتّى يوهم أنّه صحيح، وهو المعنى الذّي اعتمده أفلاطون وأرسطو.

2- الجدل من المنظور القرآني بين المحمود والمذموم:

أ/ الجدل المحمود

يعتبر الجدل المحمود أساسا هو الذّي يرمي إلى كشف الحقيقة بالحوار البنّاء البعيد عن المراء واللّجاجة، ومنه كان الأمر القرآني بالإحسان في الجدل في قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125)، وفي موضع آخر ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46).

تبيّن هذه الآيات وغيرها صفات الجدل المحمود المتمثّلة في دلالة العبارة والإشارة والاقتضاب، وفي ذلك كشف لمعالم هذا النّوع من الجدل الذّي اعتمده الأنبياء مع أقوامهم لنشر ما كلّفوا به من دعوات، فالله سبحانه يدعوا للجدال في الحقّ وتبيانه حتّى يكون قوله فصلا وبذلك يزهق الباطل، يقول تعالى ﴿ويُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ﴾) الأنفال:7).

ومن أمثلة الجدال المحمود عند أنبياء الله ورسله ما ورد في قولِهِ تعالى ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: 74) وهو مشمول في الجدل المحمود لأن جدال الرّسل محمود وليس فيه خصومة ولا لجاج.[10]

وبناء عليه، يكون الجدل المحمود مشمولا بشروط معيّنة أهمّها الابتعاد عن الكذب والمراء، واعتماد الأمانة والصّدق والفهم والتّفهّم، ولربّما ندرج مصطلحًا معاصرًا له أهمّيّة كبيرة في العصر الحاضر

---

[8] بدوي، عبد الرّحمان، منطق أرسطو، دار القلم، ط1، دت، ص723

[9] جمهوريّة أفلاطون، ترجمة نظلّة الحكيم ومحمّد أحمد سعيد، دار المعارف4، 2021، ص533

[10] الألمعي، زاهر عوّاض، مناهج الجدل في القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، ط4 ،1433هـ، ص 24.

للنّأي بالجدال من المحموديّة إلى المذموميّة، وهو الإيديولوجيا التّي تثير من التّعصّب ما تثير فيبتعد العقل عن الاستيعاب والتّعقّل.

ب/ الجدل المذموم

وهو الجدل الذّي يسعى إلى طمس الحقيقة فيجادل صاحبه باطلا ومراء ويحاول بذلك إرباك الخصم وإبعاده عن النّتيجة الصّادقة المنشودة، وعليه هو جدال مبني على أسباب غير موضوعيّة وهو أساس منسوب إلى الكفّار الذّين يستندون إلى أسباب ذاتيّة تتمثّل في الكبر والعادات الاجتماعيّة خاصّة، ومصداق ما سقناه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ (غافر56).

وكثير ما تتحوّل العادات والتّقاليد إلى واقع يصعب التّخلّص منه حيث تصبح تلك العادات برغم كلّ ما تحتويه من انحرافات مسلّمات يقينيّة ترفض كلّ مناقشة أو محاولة للتّغيير والتّجديد، حتّى أضحت سلطة يخضع لها أصحابها، ومنه ما ورد في الذّكر الحكيم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الزّخرف22).

وقد نهى القرآن الكريم عن هذا النّوع من الجدل الذّي لا يساعد على البناء وكشف الحقائق ومنه قوله تعالى ﴿ وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ (النّساء 107/ 109).

ثانيا: الجدل بين الفرق الإسلاميّة نماذج ونتائج:

1- نماذج مختارة:

أ/ قصّة جدل القدري مع الأوزاعي:

كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قدريّ فبعث هشام إليه فقال له: قد كثر كلام النّاس فيك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أدع من شئت فيجادلني فإن أدركت عليّ بذلك فقد أمكنتك من علاوتي.

فقال هشام: قد أنصفت.

فبعث إلى الأوزاعي فلمّا حضر قال له هشام: يا أبا عمرو ناظر هذا القدري

فقال له الأوزاعي: اختر إن شئت ثلاث كلمات، وإن شئت أربع، وإن شئت واحدة.

فقال له القدري: بل ثلاث كلمات.

فقال الأوزاعي للقدري: أخبرني عن الله عزّ وجل هل قضى على ما نهى ..؟

قال القدري: ليس عندي في هذا شيء.

فقال الأوزاعي: هذه واحدة، ثم قال: أخبرني عن الله عزّ وجل أحال دون ما أمر؟

قال القدري: هذه أشدّ من الأولى، ما عندي في هذا شيء.

فقال الأوزاعي: هذه اثنتان يا أمير المؤمنين، ثم قال أخبرني عن الله عزّ وجل. هل أعان على ما حرّم؟

فقال القدري: هذه أشدّ من الأولى والثّانية، ما عندي في هذا شيء.

فقال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين، هذه ثلاث كلمات.

فأمر هشام فضربت عنقه فقال هشام للأوزاعي: فسّر لنا هذه الكلمات الثّلاث ما هي؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما تعلم أنّ الله تعالى قضى على ما نهى: نهى آدم عن الأكل من الشّجرة، ثم قضى عليه فأكلها، أما تعلم أن الله تعالى حال دون ما أمر، أمر إبليس بالسجود لآدم، ثم حال بينه وبين السّجود، أما تعلم يا أمير المؤمنين أنّ الله أعان على ما حرم؟ حرم الميتة والدّم ولحم الخنزير، ثم أعان عليه بالاضطرار.

فقال هشام: أخبرني عن الواحدة ما كنت تقول له؟

قال: كنت أقول له أخبرني عن الله عزّ وجل حيث خلقك، خلقك كما شاء أو شئت، فإنه يقول كما شاء، فأقول له : أخبرني عن الله عزّ وجل يتوفاك إذا شئت أو إذا شاء ، فإنّه كان يقول إذا شاء، فأقول له أخبرني عن الله عزّ وجل إذا توفاك تصير حيث شئت أو حيث شاء، فإنّه كان يقول حيث شاء يا أمير المؤمنين : فمن لم يمكنه أن يحسن خلقه، ولا يزيد في رزقه ولا يؤخّر أجله ولا يصير لنفسه حيث شاء فأيّ شيء في يده من المشيئة يا أمير المؤمنين؟

قال: صدقت يا أبا عمرو.

قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين: إنّ القدريّة ما رضوا بقول الله تعالى، ولا بقول الأنبياء عليهم السلام، ولا بقول أهل الجنة، ولا بقول أهل النار، ولا بقول الملائكة، ولا بقول أخيهم إبليس.

فأمّا قول الله تعالى: فهو: (فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

وأمّا قول الملائكة فهو: (لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا).

وأمّا قول الأنبياء فقال شعيب عليه السلام: (وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

وقال إبراهيم عليه السلام: (وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ).

وأما قول أهل الجنّة فإنّهم قالوا: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللهُ).

وأمّا قول أهل النار فهو (لَوْ هَدانَا اللهُ لَهَدَيْناكُمْ).

وأمّا قول إبليس فهو: (رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي).[11]

ب/ قصّة جدل النّظّام مع المنانية:

تزعم المنانية أنّ الصّدق والكذب متضادّان، وأنّ الصّدق خير، وهو من النّور، والكذب شرّ وهو من الظّلمة، فقال لهم إبراهيم النّظام في جلسة تناظريّة: حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه، من الكاذب ...؟

قالوا: الظّلمة.

قال: فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب، وقال قد كذبت وأسأت، من القائل قد كذبت ..؟

فاختلطوا عن ذلك ولم يدروا ما يقولون.

فقال إبراهيم النظام: إن زعمتم أنّ النّور هو القائل قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنّه لم يكن الكذب منه، ولا قاله. والكذب شر، فقد كان من النّور شر، وهذا هدم قولكم.

وإن قلتم: إن الظّلمة قالت: قد كذبت وأسأت فقد صدقت والصّدق خير. فقد كان من الظلمة صدق وكذب، وهما عنده مختلفان خيرا وشرا على حكمكم.[12]

ب/ قصّة جدل الخوارج:

لمّا قتل الخوارج عبد الله بن خباب بن الأرت، أرسل إليهم علي أن أسلموا قاتل عبد الله ابن خباب، فأرسلوا إليه إنّا كلّنا قتله، ولئن ظفرنا لقتلناك، فأتاهم علي في جيشه، وبرزوا إليه بجمعهم فقال لهم قبل القتال ماذا نقمتم مني ..؟

فقالوا أوّل ما نقمنا منك أنّا قاتلنا بين يديك يوم الجمل، فلمّا انهزم أصحاب الجمل أبحث لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم، فكيف استحللت ما لهم دون النّساء والذّرية ..؟

فقال: إنما أبحت لكم أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم، والنّساء والذّرية لم يقاتلونا.

---

[11] التّفتزاني، سعد الدّين، شرح المقاصد، تحقيق عبد الرّحمان عميرة، عالم الكتب، ط1، 1998م، ص 58 وما بعدها.

[12] التّفتزاني، سعد الدّين، شرح المقاصد، ص 59

وكان لهم حكم الإسلام، بحكم دار الإسلام، ولم يكن منهم ردّة عن الإسلام، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر، وبعد لو أبحت لكم النّساء أيكم يأخذ عائشة أم المؤمنين في سهمه؟

فخجل القوم من هذا ثم قالوا له: نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين عن اسمك في الكتاب بينك وبين معاوية لما نازعك معاوية في ذلك.

فقال: فعلت مثل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية حين قال سهيل بن عمرو: لو علمت أنّك رسول الله ما نازعتك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله وسهيل بن عمرو.

وأخبرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ لي منهم يوما مثل ذلك، فكانت قصة في هؤلاء الأبناء قصة رسول الله صلى الله عليه وسلّم مع الآباء.

فقالوا له: فلم قلت للحكمين فإن كنت أهلًا للخلافة فقرّراني، فإن كنت في شك في خلافتك فغيرك بالشّك أولى.

فقال: إنّما أردت بذلك النّصفة لمعاوية، ولو قلت للحكمين احكما لي بالخلافة لم يرض بذلك معاوية، وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلّم نصارى نجران إلى المباهلة، وقال لهم «تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين».

فأنصفهم بذلك من نفسه، ولو قال أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم لم يرض النصارى بذلك، لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسي، ولم أدر غدر عمرو بن العاص.

قالوا: فلما حكمت الحكمين في حق كان لك ...؟

فقال: وجدت رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، ولو شاء لم يفعل، وأقمت أنا أيضا حكما لكن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلّم حكم بالعدل، وحكمي خدع حتى كان من الأمر ما كان، فهل عندكم شيء سوى هذا ..؟

فسكت القوم، وقال أكثرهم، صدق والله، وقالوا: التوبة.[13]

2- نتائج الجدل:

يذهب الكثير من الباحثين والدّارسين لعلم الكلام إلى أنّ حكم الجدل الوجوب الكفائي للردّ على ذوي البدعة والمكابرة ودحض الفكرة بالفكرة، وعموما مفتاح الجدل وشروطه يكمن في الآية الكريمة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النّحل: 125).

والجدل كما سبق وسقنا موجود منذ بدايات الإنسان على الأرض، لكن بعد انتشار الإسلام ووفاة الرّسول صلّى عليه وسلّم زادت حدّته وحما وطيسه، ممّا أدّى إلى افتراق الأمّة وانقسامها إلى شيع وأحزاب، ودخلوا في الفتنة المشهورة بالفتنة الكبرى، فكانت فرقا عديدة كلّ بما عنده يرشح، وكلّ لرأيه متعصّب.

ويعتبر هذا الانقسام تصديقا للحديث النّبوي المعروف بحديث الافتراق، أخرج التّرمذي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النّعل بالنّعل حتّى إن كان منهم من أتى أمّه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإنّ بني إسرائيل تفرّقت على اثنتين وسبعين ملّة، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين ملّة كلّهم في النّار إلاّ ملّة واحدة، قالوا، ومن هي يا رسول الله؟ قال ما أنا عليه وأصحابي".[14]

---

[13] التّفتزاني، سعد الدّين، شرح المقاصد، ص60.

[14] التّرمذي، أبو عيسى محمّد، سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم 2641 ج5 دار السّلام للنّشر والتّوزيع، ط2، سنة 2000، ص26.

حذّر النّبيّ صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث من الافتراق والانشقاق في الأمّة الإسلاميّة، وقد رُوِي بألفاظ عديدة وطرق مختلفة عرضها الإمام العجلوني[15]، وأحصاها في " كشف الخفاء" من طريق ستة عشر صحابياً[16].

وقد لَقِيَ هذا الحديث انتقادات كثيرة من حيث الإسناد فقد ضَعَّفَهُ " ابن حزم الظاهري"[17] وغيره نظراً لوروده بأكثر من لفظ، إلاّ أنّ للحديث طُرُق كثيرة يعضد بعضها بعضاً، والحديث يدل دلالة قاطعة على أن الاختلاف واقع في أمّة الإسلام لا محالة والنجاة منه هو التزام السنة.

ولقد حاول الكثير من الباحثين الذّين كتبوا في الفرق والملل أن يقسّموا الفرق الإسلاميّة إلى ثلاث وسبعين فرقة تمشّيا مع الحديث النّبوي الآنف الذّكر، ما حدا بهم إلى التّوسّع في التّفريع المُشطّ، ويتجلّى ذلك مثلا مع الإسفراييني[18] في" التّبصير"، والبغدادي[19] في " الفرق بين الفرق"[20].

وفي هذا السّياق يقول الشّهرستاني[21] "ما وجدت مصنّفين منهم متفقين على منهاج واحد في تعديد الفرق ومن المعلوم الذي لا مراء فيه أنه ليس كل من تميز عن غيره بمقالة ما في مسألة ما، عُدّ صاحب مقالة، وإلا فتكاد تخرج المقالات عن حد الحصر والعدِّ، وما وجدت لأحد من أرباب المقالات عناية بتقرير هذا الضّابط، إلاّ أنّهم استرسلوا في إيراد مذاهب الأمة كيف ما اتّفق وعلى الوجه الذي وجد، لا على قانون مستقر وأصل مستمر"[22]، وقد عدّ الشّهرستاني الفرق الإسلاميّة أربعة، وهي القدرية والصّفاتيّة والخوارج والشّيعة، وعند غيره ثلاثة، وهناك من عدّها ثمانية وكذلك عشرة كما عند الأشعري في مقالات الإسلاميين.

بناء على ما سبق، يمكن القول أنّ عدد الفرق يتفاوت في كلّ عصر بتتابع الأزمنة وتنوّع الأمكنة بمعنى أنّه في نهاية الأمر العدد الوارد في الحديث الشّريف ليس قطعي فعدد الفرق قد يتجاوز السّبعين طالما أنّ الحياة لازالت قائمة على وجه الأرض.

وربّما العدد المذكور في الحديث مراده الكثرة وليس بمعنى ذلك العدد في حدّ ذاته بما يحيلنا للقول أن البعض تعسّف عندما وصل بعدد الفرق إلى الثلاث وسبعين، دون أن يراعي الاستمرارية الزّمانية وظهور فرق أخرى في العصور المستقبليّة.

يمكن القول أيضا أنّ بروز الخوارج والشّيعة خلال فترة ولاية عليّ رضي الله عنه والذّي خاض غمار معركتين الجمل بينه وبين عائشة أمّ المؤمنين، ومعركة صفّين بينه وبين معاوية والتّي شهدت أحداثا دامية

---

[15] عالم ومحدّث شافعيّ المذهب، ولد سنة 1087ه/1676م، وتوفّي 1162ه/ 1749م، من مؤلّفاته " الفوائد الدّراري في ترجمة الإمام البخاري" (كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت،ط 2 / 292)

[16] العجلوني، إسماعيل، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة النّاس، تح يوسف بن محمود الحاج أحمد، مكتبة العلم الحديث ط دت، 1 /346.

[17] هو ابن حزم الأندلسي ولد 384ه/959م وتوفّي 456ه/1064م، من أكبر علماء الأندلس لقّب بالظّاهري نسبة لانتمائه للمذهب الظّاهري ويعدّ أكثر العلماء تأليفا وكتابة بعد الطّبري (انظر ابن خلكان، أحمد بن محمّد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، دار صادر بيروت، ط1994/1، ج 3، ص 330/325).

[18] هو أبو حامد الإسفراييني فقيه شافعي ولد 344ه/955م وتوفّي 406ه/ 1015م، لقّبه صاحب سير أعلام النّبلاء بشيخ الشّافعية (انظر سير أعلام النّبلاء للذّهبي، 17 /193)

[19] هو عبد القاهر البغدادي، متكلّم وفقيه شافعي توفّي 429ه/ 1038م من مؤلّفاته " النّاسخ والمنسوخ" و"تأويل متشابه الأخبار" و"تفسير الأسماء والصّفات" و"أصول الدّين" وغير ذلك (الذّهبي، شمس الدّين، تهذيب سير أعلام النّبلاء، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة ط1- 1412ه /1991م، ج18، ص565).

[20] يرى أصحاب هذا المنهج أنّ الفرق الضّالة انقسمت وانشقّت عنها فرق أخرى حتّى وصلت إلى الثّلاثة وسبعين فرقة (راجع ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ترجمة وتحقيق عصام فارس الحرساني – محمّد إبراهيم الزّغلي، المكتب الإسلامي للطّباعة والنّشر، ط1/ 1994).

[21] هو محمّد بن عبد الكريم بن أحمد الشّهرستاني أبو الفتح، إماما أصوليّا برع في الفقه وهو شافعيّ المذهب، وبرع في أصول الدّين وهو أشعريّ المذهب ولد سنة 479ه/ 1086م وتوفّي سنة 548ه/ 1153م، له عدّة مؤلّفات منها كتابه الشّهير الملل والنّحل، وكتاب نهاية الإقدام في علم الكلام، وكتاب مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، وكذلك المناهج في علم الكلام وعموما فإنّ كتاباته تزيد عن العشرين مصنّفا (سير أعلام النّبلاء، 286/20).

[22] الشّهرستاني، الملل والنّحل، صحّحه أحمد فهمي محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1992/2، 14/1.

بين صحابة أجلاّء هي أوّل شرارة وأهمّ سبب فتح شرخًا في صدر الأمة الإسلاميّة وفتح باب فتنة عسر سدّه.
وتوالت الفرق فبرزت المعتزلة وبعدها الأشاعرة وصاحبها أبو الحسن الأشعري الذّي كان اعتزاليّ البدايات، وكانت الجهميّة والباطنيّة وغيرها كثير، ولقد كان لكلّ فرقة من هذه الفرق طرائق جدل خاصّة بها ومناقشات يلتبس فيها الحقّ بالباطل.

إنّ الانقسام الذّي حصل في الأمة الإسلاميّة تطوّر حتّى تطوّرت معه وسائل الجدل والمحاورة فخرجنا من طور الجدل الفكري ودحض الفكرة بالفكرة إلى طور الجدل العنيف ودحض الفكرة بالسّلاح والإرهاب، فكانت الجماعات الإرهابيّة التّي تنسب نفسها للإسلام تنتشر في بلدان العالم العربي لتبثّ فيه الفوضى والعنف، وتشتّت أهله وتمزّق وثاقه بتعلّة الجهاد في الإسلام، جهاد مغلوط لا يمتّ للإسلام بصلة تسعى جاهدة من خلاله للسّيطرة على عقول الشّباب منادية لإراقة الدّماء باسم الدّين ولأجل الجنّة، و بـ"محاربة الطّاغوت" و" الجهاد في سبيل الله " بمفهومه اللاّ إسلامي، بمفهومه الإرهابي.

لقد تكوّنت كيانات إرهابيّة تتمسّك بلقب " السّلفي" و" الإخواني" بغضّ النّظر عن ممارساتها، حيث ارتكزت السّلفيّات الحديثة على طريقة واحدة في التّعامل مع هياكل الدّولة، ومع العامّة البسيطة في تفكيرها وتديّنها وهي التّكفير.

وانقسمت الطّائفة السّلفيّة كما تلقّب نفسها لنراها على أشكال مختلفة، تبرز في مختلف أقطار الدّول الإسلاميّة وحتّى خارجها، لتحتلّ هاته الأرجاء بالقنابل والسّيارات المفخّخة والعمليّات الإرهابية التّي تراها هي استشهادية، ومنها "السّلفيّة الجهاديّة"[23] التّي رأت الجهاد بمفهوم واحد فقط وهو الجهاد المُسلّح، كحراك يسعى إلى التّغيير بالقوّة، ومن أبرز جماعاتها الجهاديّة "تنظيم القاعدة " الذي برز في العراق، وتنظيم الدّولة الإسلاميّة أو ما يُسمّى بـ" داعش"، الذّي انبثق عن تنظيم القاعدة وتنتشر هذه الجماعات خاصّة في العراق وسوريا وجنُوب اليمن، وفي شرق محافظة سيناء بمصر، وفي بعض الأماكن في ليبيا، وكذلك في الجزائر تنشط هذه الجماعات تحت مُسمّى "جند الخلافة"، وفي تونس جماعة " أنصار الشّريعة " التّى تأسسّت في أواخر سنة 2011 عقب الثّورة التّونسيّة.[24]

قامت هذه الجماعات الجهاديّة بعدّة عمليّات إرهابيّة، مستغلّة جنودها المستقطبين المُدمغجين من أبناء الفئات المُهمّشة اجتماعيّا أو البسيطة فكريّا، يقول أحد قياديي هذه الحركات كمحاولة لمقاربة هذه الظّاهرة "إنّ الحركة الجهادية الأمل حركة سلفيّة التّصور والرؤى سلفيّة المنهج والطريق، بريئة كل البراءة من الإرث المنحرف في فكر الأشاعرة والماتريدية سليمة كل السّلامة من آثار المنهج الصوفي الضّال، لا تنتسب إلى أي مذهب وطريق إلا طريق الكتاب والسّنّة، بصيرة بحال أهل زمانها تصبغ أعمالها بالبعد التعبدي لحركة الصحابي الأول في الأرض، وإذا عرفنا هذا تبين لنا أن حركات الجهاد في العالم الإسلامي لم تصل إلى الأمل المنشود ولكنها إن شاء الله تشد الخطى نحوه".[25]

إذن ترى هذه الحركات بضلالة غيرها من الفرق التّي تختلف معها فكريّا، وتنسب منهجها التّدميري لوسطيّة الإسلام، وإلى الصّحابة رضوان الله عليهم، غير أنّ هذا الكلام مجرّد طعم للنّاقمين على ظروفهم المعيشيّة وسط البلدان الإسلاميّة كعمليّة استقطاب وتعبئة، فهل أنّ هذا الجهاد الذّي تتبنّاه هذه السّلفية هو الجهاد الحق الذّي دعا إليه الإسلام بمفهومه ومرتكزاته الشّرعيّة؟

---

[23] بداية ظهور هذه الطّائفة فعليّا كان في نهاية الثّمانينات تحديدا، زمن " أنور السّادات" الرّئيس الثّالث لجمهوريّة مصر العربية، غير أنّ صياغة ملامح هذا الفكر كان مع المنظّر الإسلامي "سيّد قطب" في السّتينات، زمن انقلابه الفكري في عهد جمال عبد النّاصر الرّئيس الثّاني للجمهوريّة المصريّة ليتطوّر هذا الفكر في شكله التّطبيقي مع عدّة أسماء أهمّها "أسامة بن لادن" مؤسّس وزعيم تنظيم القاعدة السّابق(سعودي الجنسيّة)، "أبو قتادة الفلسطيني"(أردني الجنسيّة) وأيمن الظّواهري(مصري الجنسيّة) وهو الزعيم الحالي لتنظيم قاعدة الجهاد المنظّمة السّلفية الجهاديّة (راجع جيل كيبيل، الفتنة حروب في ديار المسلمين، ترجمة نزار أورفلي، دار السّاقي 2008، ص 208).

[24] أبو هنيّة، حسن، **الجهادية العربية ـ اندماج الأبعاد: النكاية والتمكين بين الدولة الإسلامية" و"قاعدة الجهاد"**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1/ 2018، ص362.

[25] أبو عمر، عمر بن محمود (أبو قتادة الفلسطيني)، " الجهاد والاجتهاد تأملات في المنهج"، دار البيارق، عمّان، 1999 ص 69.

إنّ الإسلام بعيدا كلّ البعد عن هاته الأشكال من الممارسات الهدّامة للوطن والوطنيّة وللقيم والإنسانيّة يقول تعالى ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[26].

لقد أصّل الشّيخ محمّد سعيد رمضان البوطي لمفهوم الجهاد في الإسلام وأقرّ أنّ " الجهاد بالدّعوة إلى الله هو أساس الجهاد وعماده، وهو الذّي استغرق من حياة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الفترة الأطول، وهو الجهاد الماضي إلى يوم القيامة والمستمر في كلّ الظّروف والأحوال... والجهاد القتالي هو فرع من فروع الجهاد محدود بظروف خاصّة ومُقيّد بشروط معيّنة من تكوّن المجتمع الإسلامي وتميّزه في دار الإسلام ونشوء حرابة تهدّد مكتسباته"[27]، ما ينفي تماما القتال العشوائي باسم الجهاد الذّي تقوم به حركات السّلفيّة الجهاديّة اليوم، على اعتبار وأنّ الجهاد القتالي الحق يكون لدفاع المرء عن نفسه وحياته وداره وممتلكاته وعرضه أو عند اقتحام العدوّ لحِمى المسلمين[28].

إذن قَنَّنَ الدّين الإسلامي عمليّة الجهاد بالسّيف، وجعل له أحكاما وضوابط بما لا يترك مجال لإراقة الدّماء بصفة عشوائيّة، وقد أمر جلّ وعلا بالقتال لا بالقتل، يقول تعالى ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِاليَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وهم صاغِرُون﴾[29]، والقتال كما ورد في الآية الكريمة بمعنى المُقاومة لمن بدأ بقصد القتل، بالتّالي المسألة في الإسلام دفاع عن النّفس والحرمة، وليس بمعنى التّعدّي والتّرهيب .

وبناء على ما سبق، يكون الجهاد الحقيقي لمن أراده في هذا الزّمن كما أفصح البوطي هو الجهاد لتحرير فلسطين[30]، وليس لقتل الأبرياء على أراضيهم، وإقامة غزوات على أراضي الإسلام بدعم من تجّار الدّم والدّين الذّين أطلقوا اللّحيّ واعتمروا العمائم واستباحوا الحرمات وقتلوا النّساء الله أكبر، وقتلوا الأطفال الله أكبر، وقتلوا رجال الدّين الله أكبر وقتلوا الجندي أو الشّرطي الذّي يعمل حتّى يؤمّن قوت أطفاله الله أكبر، وهكذا الله أكبر أقحموها في كلّ أعمالهم الدّنيئة التّي دمّرت الأمن القومي.

خاتمة:

يتميّز الجدل بتداخل ثلاثة مبادئ أساسيّة لا غنى عنها في الحقل الحجاجي وهي المعرفة والأخلاق والمنهج، وهذه الصورة المركبة للجدل تتجاوز المنظور الضّيق الذي بُنِيَ على أساس الهوى والمصلحة والإيديولوجيا، فتوخّي الدّقة في ضبط الكلمات والمفاهيم وتبويب المسائل وترتيب الحجج، وتقديم التعليلات والمسوغات العقلية هي الضّابط والأساس الرّئيس للوصول على نتائج علميّة مرموقة.

وعليه، فإن مضامين الجدل وفنونه يجب أن تستثمر في التّنظير لعلم الجدل بطابع أخلاقي في سياق الممارسة، ليترتّب عنه نسيج الفنّ المتكامل الذّي لا ينفصل فيه المعرفي عن الأخلاقي، بحيث يقود بداية إلى عقلنة الظّواهر والأحكام، ليتحقق لها الاتساق والتماسك من التّحيزات والهوى، وصولا إلى الحقيقة كبداية لإقناع النّفس ثمّ إقناع الآخرين.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ترجمة وتحقيق عصام فارس الحرساني – محمّد إبراهيم الزّغلي، المكتب الإسلامي للطّباعة والنّشر، ط1/ 1994.
2- ابن خلكان، أحمد بن محمّد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، دار صادر بيروت، ط1/1994.
3- ابن سيناء، أبو علي الحسين بن الحسن، الشّفاء، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر، ط1، 1988.

[26] الأعراف، 55.
[27] البوطي، محمّد سعيد رمضان، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، دار الفكر، دمشق 1993، ص58.
[28] ن م، ص59.
[29] التّوبة، 29.
[30] البوطي، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، ص60.

4- ابن فارس، أحمد بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، 1979م.
5- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414 هـ.
6- أبو عمر، عمر بن محمود (أبو قتادة الفلسطيني)، الجهاد والاجتهاد تأملات في المنهج"، دار البيارق، عمّان، 1999.
7- أبو هنيّة، حسن، الجهادية العربية - اندماج الأبعاد: النكاية والتمكين بين الدولة الإسلامية" و"قاعدة الجهاد"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1/ 2018.
8- الألمعي، زاهر عوّاض، مناهج الجدل في القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، ط4 1433هـ..
9- بدوي، عبد الرّحمان، منطق أرسطو، دار القلم، ط1، دت.
10- البوطي، محمّد سعيد رمضان، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، دار الفكر دمشق 1993.
11- التّرمذي، أبو عيسى محمّد، سنن الترمذي، دار السّلام للنّشر والتّوزيع، ط2، سنة 2000.
12- التّفتزاني، سعد الدّين، شرح المقاصد، تحقيق عبد الرّحمان عميرة، عالم الكتب، ط1، 1998م.
13- الجرجاني، الشّريف، التعريفات، تحقيق مصطفى أبو يعقوب، مؤسّسة الرّسالة ناشرون، ط1، 2006.
14- جمهوريّة أفلاطون، ترجمة نظلة الحكيم ومحمّد أحمد سعيد، دار المعارف، ط4، 2021.
15- جيل كيبيل، الفتنة حروب في ديار المسلمين، ترجمة نزار أورفلي، دار السّاقي 2008.
16- الذّهبي، شمس الدّين، تهذيب سير أعلام النّبلاء، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة ط1- 1412ه /1991م.
17- الشّهرستاني، أبو الفتح، الملل والنّحل، صحّحه أحمد فهمي محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط1992/2.
18- العجلوني، إسماعيل، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة النّاس، تحقيق يوسف بن محمود الحاج أحمد، مكتبة العلم الحديث ط دت.
19- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2.
20- الكفوي، أبو البقاء أيّوب بن موسى، الكليّات (معجم مصطلحات والفروق اللّغويّة)، تحقيق عدنان درويش، محمّد المصري، مؤسّسة الرّسالة، ط2، 1998.